

وإذا حدث أن هدّد البرابرة مثل «الهون» أو «السرماطين» أو «الألتيين» بعض الأقاليم الساسانية فإن ملك الملوك كان يُرسل إليهم فارساً من أكرم الفرسان، «إسفيداراً» مقداماً ما إن ينجز مهمته حتى يسرع للسجود بفخار عند قدمي عاهله لتلقي بعض كلمات الشناء أو حُلة زاهية. وبالمقابل فإنه عندما كان يحاصر تراب «الإمبراطورية» أولئك البرابرة أو «الفرس» فإن الأباطور لا يلبث أن يشعر بانزلاق عرشه. ولم يكن من الصعب التنبؤ بأنه ما إن تصدّ الفيالق العدو حتى يزحف قائدها المتوجّج بهالة نصره الفتيّ على (روما) للاستيلاء على الحكم. وإذا ما حدث بمعجزة أن كان لا يتوق إلى ذلك ولا يجسر عليه فإن قادة المئة في جيوشه سوف يعلنونه «إمبراطوراً» عليهم وعلى سائر أفراد هذه الجيوش. وطريق الوصول لكل من يصبو إلى خلافة «الجليل»: أن يرأس بنفسه جيوشه على أمل أن يقطف بيديه غار النصر. ولكن ما إن يبتعد عن «المدينة» حتى يبدأ حوك المؤامرات.

وحتى على الجبهة لم يكن بمنجاة. ولا يزال المؤرخون يتساءلون عما إذا كان الإمبراطور «غورديانوس»، وهو ثالث من حملوا هذا الاسم، قد جرح حتى الموت حين ذهب يُناوش شمالي (ما بين النهرين) بيد أحد المرتزقة لحساب «الساسانيين» أو بطلب من رئيس حرسه الخاص «ماركوس يوليوس فيليبوس». وعلى أي حال فقد عزّت الشائعات التي سرت في «المدينة» الجريمة إلى هذا الأخير. الأمر الذي جعل منه تبعاً للتقاليد الدستورية المعمول بها في تلك الحقبة أقرب ورثة الفقيده إلى منطلق الأمور. وقد ظهر في قائمة الأباطرة الرومان باسم «فيليبوس العربي» إذ كان قد وُلد في كنف قبيلة كانت تترحّل على أطراف الصحراء في (جزيرة العرب).

قبيلة كانت قد اعتنقت في وقت مبكر جداً دين «الناصري». ويُؤكّد مطران «القيسارية»، «أوسيب» وهو من المؤرخين «للكنيسة» أن «فيليبوس» كان، قبل «قسطنطين» بكثير، أول إمبراطور مسيحي، وأنه كان يذهب بالسرّ إلى المغاور ويؤدّي شعائر الاعتراف مع عامة المستغفرين؛ وربما منعه هشاشة وضعه